

## قراءة مقارنة في خلفيات ودوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس

د/رامي سيدي محمد

أستاذ مؤقت بقسم التاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

ملخص:

يندرج الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس ضمن مرحلة تطور التوسع الاستعماري نحو المضمون الإمبريالي، فقد كانت كل منهما عرضة للحملات الصليبية الأوروبية ومنها الفرنسية وذلك منذ أواخر القرن 13، ورغم أن هناك اختلاف في قضية حسم فرنسا لتدخلها في الجزائر وتونس، إلا أنها نالت التزكية والموافقة من أغلب القوى الأوروبية.

ولا يوجد اختلاف كبير بين الخلفيات والدوافع السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الدينية للاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس، حيث كانت فرنسا تعتبرهما جزءا من الإمبراطورية العثمانية أشد أعدائها، كما أنهما كانتا تهددان مشاريع فرنسا التوسعية وأمنها باستمرار في حوض المتوسط، وهما بموقعهما الاستراتيجي وخيراتها أهم أهدافها الاستعمارية في إفريقيا.

وقد اختلقت فرنسا الذرائع لاحتلال الجزائر ولفرض الحماية على تونس لإقناع الرأي العام المحلي والعالمي، ويكمن التشابه بينها كونها واهية وغير مقنعة لأي عاقل.

الكلمات المفتاحية: الجزائر – تونس – الاحتلال – الحماية – الدوافع – التشابه – الاختلاف.

**Résumé:**

l'occupation française de l'Algérie et de la Tunisie fait partie dans le stade de développement de l'expansion coloniale vers le contenu de l'impérialisme, ils étaient tous les deux vulnérables aux croisades européennes, y compris le français, depuis la fin du 13ème siècle, et bien qu'il y ait une différence entre l'intervention de la France en Algérie et en Tunisie, mais elle a reçu le parrainage et l'approbation de la plupart des Pouvoirs européens.

Il n'y a pas de différence significative entre les motifs de l'occupation politiques, militaires et économiques et même religieuse de la France en Algérie et en Tunisie, où la France a été marquée dans le cadre des plus ennemis de l'Empire ottoman, et ils menaçaient les projets de la France, et ça sécurité en Méditerranée.

La France a revendiqué des prétextes pour l'occupation de l'Algérie et d'imposer une protection sur la Tunisie pour persuader l'opinion publique locale et internationale, est la similitude entre les deux étant fragiles et non convaincante.

#### مقدمة:

كانت أوروبا خلال القرن 19م، تمثل مركز ثقل العلاقات الدولية، من خلال تزعمها للعالم سياسيا واقتصاديا، ومن خلال هيمنتها على مصير شعوبه بحركة استعمارية عدوانية، والتي واكبت الثورة الصناعية أو ما يسمى "بالانقلاب الصناعي"، والذي كان السبب المباشر والرئيسي في ظهور الاستعمار الأوروبي الحديث، فقد أفرز هذا الانقلاب الصناعي تكالبا استعماريًا بين الدول الأوروبية مع مطلع النصف الثاني من القرن 19م، وخاصة بين بريطانيا وفرنسا والدول الحديثة (ألمانيا وإيطاليا)، وكانت كل من قارات إفريقيا وآسيا وأمريكا مسرحا لهذا التنافس الاستعماري الأوروبي.

وفي نفس السياق كانت ممتلكات الدولة العثمانية التي شهدت خلال هذه الفترة ضعفا سياسيا وعسكريا، عرضة ومطمعا لمعظم القوى الاستعمارية، التي استعملت كل الوسائل لإخضاع الأقطار التابعة للحكم العثماني، أو ما اصطلح على تسميته بـ"اقتسام تركة الرجل المريض"، وكان ذلك من خلال تنافس استعماري وصل إلى درجة المواجهة المباشرة. ولتجنب تطور وتأزم هذه المواجهات، ظهرت عدة نوايا للتفاهم والتسوية، ومن مظاهر ذلك عقد عدة مؤتمرات واتفاقيات دولية أبرزها معاهدة سان ستيفانو في 03 مارس 1878 التي أنهت الحرب الروسية التركية، ومؤتمر برلين الأول في جوان 1878 الذي جاء لمراجعة بنود المعاهدة المذكورة وتوزيع مناطق نفوذ الدول الأوروبية الكبرى، كما حسمت في كواليسه القضية التونسية لصالح فرنسا، بالإضافة إلى مؤتمر برلين الثاني (1884-1885) الذي يعد المحفل الذي تقاسمت فيه دول أوروبا باقي مناطق النفوذ الاستعماري في إفريقيا؛ وقبل ذلك كان مؤتمر أكس لاشابيل (1818م) الذي أفرز تنافسا استعماريًا على الجزائر بوجه خاص، وحفز فرنسا على الإسراع في تنفيذ مشروعها الاستعماري في الجزائر الذي لطالما خططت له. ويختلف احتلال فرنسا للجزائر عن احتلالها لتونس في العديد من الجوانب، رغم وجود أوجه تشابه، ولهذا سنحاول في هذا المقال أن نقارن بين خلفيات ودوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس من عدة جوانب: تاريخية، وسياسية، واقتصادية واجتماعية وغيرها.

#### أولا: خلفيات ودوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر:

#### 1- الخلفيات التاريخية (تطور فكرة احتلال الجزائر)

في الغالب يُؤرخ لبداية أطماع الاستعمار الأوروبي الحديث اتجاه بلاد المغرب (المغرب العربي) منذ سنة 1492م تاريخ سقوط غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس نهائيا، حيث تعددت المشاريع

الاستعمارية لاحتلاله، والذي اصطلح على تسميتها في البداية بـ"التحرشات" بما أنها كانت تمس وتستهدف السواحل فقط، واتخذت طابع توسعي منذ مؤتمر فيينا 1815م، وكانت الجزائر بالنظر لموقعها ومكانتها أهم الأقطار التي توالى عليها الحملات العسكرية ومشاريع الاحتلال خاصة الفرنسية، وعلى فترات متقطعة، إلا أنها كانت فاشلة<sup>(1)</sup>.

وتثبتت الحقائق التاريخية أن النوايا العدوانية الفرنسية ضد الجزائر كانت منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، عندما كان يفكر ملك فرنسا لويس التاسع في غزو واحتلال بلدان المغرب، فقام بحملة صليبية على تونس سنة 1270م<sup>(2)</sup>، وتقول كثير من المراجع أنه كان يقصد الجزائر بالذات، غير أنه مات دون تحقيق حلمه؛ وفي عهد ملك فرنسا شارل التاسع تجددت فكرة غزو الجزائر، وذلك بعد معركة "ليبانت" البحرية مع الدول الأوروبية التي انهزم فيها الأسطول العثماني يوم 9 أكتوبر 1571م، والتي ألحقت أضرارا كبيرة بالأسطول الجزائري، مما زاد في أطماع الملك باحتلال الجزائر وتعيين أخيه دوق دانجو (le duc d'Anjou) ملكا عليها<sup>(3)</sup>.

ورغم عقد عدة اتفاقيات تفاهم -اقتصادية على وجه الخصوص- بين الجزائر وفرنسا، إلا أن العلاقات بينهما تأزمت في بداية القرن 17م، وساءت أكثر في عهد لويس الرابع عشر (1643-1715) الذي تم في عهده قصف مدينة الجزائر عدة مرات، منها سنوات 1660م و1683م و1688م على خلفية أزمات الأسرى المسيحيين في الجزائر والأسرى الجزائريين لدى فرنسا وكذلك قضية مهاجمة السفن الجزائرية لسفن فرنسية تجارية<sup>(4)</sup>.

وفي سنة 1791م قدم قنصل فرنسا في الجزائر مشروع لاحتلالها، لكن الفكرة رفضت<sup>(5)</sup>، وفي سنة 1792م والتي تم فيها تحرير وهران والمرسى الكبير من الوجود الإسباني نهائيا، كانت هناك رغبة

<sup>1</sup> - العربي منور، تاريخ المقاومة الجزائرية، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 14.

<sup>2</sup> - الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج 2، تح: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 52.

<sup>3</sup> - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج 1، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 74.

<sup>4</sup> - وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم: عبد القادر زيادية، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2009، ص 207-211.

<sup>5</sup> - يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 1، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1965، ص 165.

قوية للتجار الفرنسيين والقيادة السياسية بتلك البلاد أن تحل فرنسا محل إسبانيا في شمال إفريقيا وتسيطر على هذه المنطقة الغنية بالثروات الطبيعية، وبصفتها موقعا استراتيجيا هاما من الناحية العسكرية<sup>(1)</sup>.

ففي عهد نابليون بونابرت<sup>(2)</sup> تجددت نوايا فرنسا في احتلال الجزائر، حيث كان نابليون يحلم بجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية، لذلك كان يخطط لحملة كبيرة ضد دول المغرب العربي وإقامة مستعمرات عسكرية فرنسية هناك<sup>(3)</sup>.

وفي سنة 1802 تمت دراسة الخطة التي وضعها القنصل الفرنسي العام "سانت أندري" ( Jean Bon Saint-André )، وبناء على ذلك أوصى هذا القنصل بضرب الجزائر ضربة قوية وسريعة وإنهاء الحرب في ثمانية أيام؛ وفي يوم 18 أفريل 1808 عاد نابليون إلى مشروع الحملة ضد الجزائر، حيث كتب رسالة سرية إلى وزيره للبحرية "ديكريس" ( Decrès ) يقول له فيها: "فكروا في إعداد غزوة إلى الجزائر، وذلك على كلا المستويين: البحري والبري"، ثم طلب من ذات الوزير إرسال أحد جنوده سرا إلى الجزائر ليتجسس والعودة بتقرير مفصل وخطة واضحة، فتم اختيار الضابط "بوتان" ( Y

<sup>1</sup> - نفسه، ص 179.

<sup>2</sup> - نابوليون بونابرت, Napoléon Bonaparte (1769 - 1821 م), كان قائد عسكري و سياسي و إمبراطور فرنسا وملك إيطاليا، واشتهر أيام الجمهورية الفرنسية الأولى لما قاد حملات ناجحة ضد التحالف الأول والتحالف الثاني أيام الثورة الفرنسية في 1798 نظم حملته عسكريه على مصر، حاول السيطرة على أوروبا والعالم لحد هزيمته ودخول قوات الحلفاء بقيادة روسيا والنمسا و بروسيا وانجلترا باريس في سنة 1814 ، فنفوه لجزيرة الباء، ولما رجع لفرنسا سنة 1815 وحكم فتره بسيطة وحاول أن يقضى على التحالف فانهزم في معركة واترلو، ثم نفي إلى جزيرة سانت هيلينا لغاية موته سنة 1821؛ أنظر: عصام عبد الفتاح، أيام محمد علي: حكاية رجل سبق عصره: عبقرية الإرادة وصناعة التاريخ، الشريف ماس للنشر والتوزيع، مصر، 2014، ص20.

<sup>3</sup> - استغل نابليون إعلان الجزائر الحرب على فرنسا استجابة لطلب الباب العالي تضامنا مع مصر إثر حملته العسكرية عليها، وأعلن في بطريرقة سرية خلال معاهدة تلسيت سنة 1807 مع التي عقدها إسكندر روسيا أنه سيطلق حملة عسكرية ضد الجزائر، ونصت المادة الخامسة من هذه المعاهدة أن مدن إفريقيا مثل تونس والجزائر ستحتل من طرف الفرنسيين...، أنظر: وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 218.

(1) Boutin، الذي أقام في الجزائر من 24 ماي إلى 17 جويلية 1808، وظل هناك يتجسس على الحصون دارسا خطة النزول بدقة متنقلا من برج البحري شرقا إلى سيدي فرج غربا، وقد وفر له القنصل الفرنسي العام في الجزائر كل التسهيلات والمساعدات، ولم يكتف عند العودة بالتقرير الكتابي، بل دعمه بخرائط<sup>(2)</sup>.

وقد ضمن تقريره معلومات دقيقة عن تحصينات الجزائر وطبيعة أرضها، وعدد قواتها، وزمن الحملة المقترحة والمدة التي تستغرقها وعدد جنود الجيش الضروري، كما أظهر الأخطار التي تتعرض لها الحملة من البحر ونصح بدلا من ذلك أن تكون الحملة برية<sup>(3)</sup>؛ ورغم أن نابليون تخلى عن مشروع الحملة لانشغاله بالحرب في إسبانيا و بحملة روسيا، إضافة إلى الاضطرابات الطارئة في أوروبا وفي فرنسا نفسها، إلا أن تقرير بوتان عام 1808 كان الأساس لحملة غزو الجزائر سنة 1830 في عهد شارل العاشر<sup>(4)</sup>.

## 2- الخلفيات والدوافع السياسية والعسكرية:

كان لبداية الوجود العثماني في الجزائر مع مطلع القرن 16 تهديد مباشر لأطماع التوسع الأوربي ليس فقط في الجزائر وإنما في جميع سواحل بلاد المغرب، فحكّم الأتراك لهذه البلاد كان بداية لنهاية الاحتلال الإسباني فيها، حيث تمتعت في ظلّه بمكانة مرموقة وهيبة دولية، ولكن

<sup>1</sup> - فانسوناييفس بوتان (Y. Boutin): من مواليد 1 جانفي 1772 قرب نانت من طبقة بورجوازية، شارك في الثورة الفرنسية الكبرى، عمل في الجيش إلى جانب نابليون بونابرت و شاركه في الحروب النابليونية، وأوفده سفيرا له في الباب العالي، ثم اختاره للقيام بزيارة تجسسية لجمع المعلومات الدقيقة و يضع خطة عسكرية لمهاجمة الجزائر؛ أنظر: أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 1982، ص 21.

<sup>2</sup> - عمار هلال، أبحاث وآراء ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص36-40.

<sup>3</sup> - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص 20-21.

<sup>4</sup> - شارل العاشر هو آخر ملوك سلالة آل بورمون، نظامه سيء ورجعي توفي سنة 1830 بعد فراره إثر ثورة جويلية، وخلفه في الحكم لويس فليب؛ ينظر: Charles Robert Ageron, l'Algérie algérien de napoléon à gaulle, paris, 1980, p125

مع نهاية القرن 16 دخلت البلاد في اضطرابات وصراعات على الحكم، رغم تواصل وتعاضم قوة الجزائر الخارجية مع تزايد رهبة وخشية الدول الأوروبية منها<sup>(1)</sup>.

انشغل العثمانيون في الجزائر في هذه الفترة بالصراع على الحكم والتنافس من أجل كسب الأموال بالنظر لكثرة نشاطاتهم العسكرية البحرية التي كسبوا منها كميات هائلة من الغنائم في حروبهم مع دول أوروبا، ولذلك فكرت هذه الأخيرة بالتحالف للقضاء على إيالة الجزائر ونشاطها البحري، في الوقت ذاته اتسمت السياسة العثمانية الداخلية في الجزائر بالعزلة وحالت دون إمكانية اندماج الأتراك بالأوساط المحلية، مما خلق نوع من الحواجز والطبقية التي أثارت سخط السكان وقلة تضامنهم مع النظام الحاكم وهذا ما زاد من خطر زواله<sup>(2)</sup>.

وكانت فرنسا تحرص دائما على إقامة علاقات دبلوماسية مع الجزائر كسبا لودها ورغبتها الشديدة في استغلال خبرات البلاد الاقتصادية والتي منها احتكار استثمار المرجان، حتى أن ملك فرنسا "شارل التاسع" أرسل إلى القنصل الفرنسي في اسطنبول "فرانسوا دينواي (François Denway)" رسالة يطلب فيها بوضوح من السلطان التركي التنازل على الجزائر مقابل مبلغ مالي سنوي مغري ولكنه رفض قبول هذا العرض<sup>(3)</sup>.

ومن 29 مارس 1619 إلى 5 جوان 1830 كانت هناك 75 معاهدة تخدّم مصالح فرنسا، لكن أطماع فرنسا التوسعية حالت دون استقرار علاقاتها السياسية مع الجزائر، حيث كانت تتوتر العلاقات في العديد من المرات، بل وكانت تتطور أحيانا إلى مواجهات عسكرية، أو قطع للعلاقات الدبلوماسية، خاصة بسبب تصرفات الشركات الفرنسية الاستفزازية أهمها شركة "لنش" بساحل القالة وعنابة التي كانت تتصرف وكأنها في بلد محتل وكذلك بمخالفتها لبعض الاتفاقيات<sup>(4)</sup>.

كما أن فرنسا أرادت أن تعوض هزائمها في أوروبا وحملتها الفاشلة على مصر، وما فقدته من مستعمرات ومراكز في أمريكا الشمالية والهند وغرب إفريقيا (السنغال) عقب حرب السنوات السبع

<sup>1</sup> - العربي منور، تاريخ المقاومة الجزائرية، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص ص 29-30.

<sup>2</sup> - فركوس صالح، الحاج أحمد باي قسنطينة، الجزائر، 1993، ص ص 11-13.

<sup>3</sup> - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص32.

<sup>4</sup> - صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال - المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص ص 175-176.

( 1756-1763 ) ضد بريطانيا<sup>(1)</sup>، وقد كانت معظم دول أوروبا تكن العداء لفرنسا كبريطانيا وروسيا، وبروسيا، فكان مشروعها بأن تعيد سمعتها في أوروبا على حساب الجزائر، كما أنها بذلك تقطع الطريق على بريطانيا أشد منافسيها، ومن جهة أخرى كانت دول أوروبا التي تضررت من حملات نابليون العسكرية تحاول أن تبعد فرنسا عن أوروبا بتشجيعها على الاهتمام بمناطق أخرى، وقد شجعت بريطانيا والنمسا ملك فرنسا شارل العاشر على القيام بغارة على الجزائر للغرض نفسه، وليحافظ على عرشه مدة أطول في ظل الثورة الشعبية التي كانت تتعمد البلاد، لإلهاء الرأي العام الفرنسي بحملة عسكرية كبرى عن المشاكل والاضطرابات الداخلية، واشغال الجيش بمسائل حيوية والمتمثلة في التوسع في إفريقيا باحتلال الجزائر، وبالتالي يتخلص الملك من إمكانية قيام الجيش بانقلاب ضده، هذا بالإضافة إلى رغبة شارل العاشر في إيجاد تعاون وثيق مع روسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية في هذا البحر<sup>(2)</sup>.

ولم تخفي فرنسا طمعها في فتح باب الهيمنة على القارة الإفريقية بداية بأخذ المغرب وتونس وخاصة الجزائر بسبب موقعها المتميز حيث صرح نائب في البرلمان الفرنسي لويس بلانكي (Louis Auguste Blanqui): "إنه من المستحيل أن نتخلى عن الجزائر الأرض التي سقيناها بدمائنا...إننا امتلأنا أكثر من 800 كيل (أي كلم) من السواحل القريبة من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وغير بعيد عن جبل طارق ومالطا"<sup>(3)</sup>.

وجاء مؤتمر فيينا الذي أكد في قراراته النهائية المعلنة بتاريخ 9 جوان 1815 تحريم القرصنة، ليدعم مشروع فرنسا في احتلال الجزائر، وفي أوت 1815 عينت فرنسا "بياردوفال" قنصلا لها في الجزائر حيث بعثت معه استعدادها لتصفية الديون كمقدمة لبداية مشروعها، وفي سبتمبر 1818 قدمت قطعة بحرية إنجليزية - فرنسية بقيادة الأمرالين "فريمونتل" و"جوليان" ليعلنا للداي قرارات مؤتمر

<sup>1</sup> - حرب السنوات السبع: هي حرب اشتركت فيها جميع دول أوروبا تقريبا، وامتدت إلى أمريكا والهند، نشبت في البداية بين بروسيا والنمسا من أجل السيطرة على ألمانيا، وساعدت بريطانيا بروسيا كما ساعدت فرنسا النمسا، وبالإضافة إلى خسارتها أراضي أمريكا الشمالية، أفرغت خزينة فرنسا وقامت فيها الثورة، أنظر: فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج3، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ص 1226-1236.

<sup>2</sup> - Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, 1964, pp 33-34.

<sup>3</sup> - سيمون بفاير، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر: دودو أبو العيد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 250-253.

إكس لاشابيل بمنع القرصنة وتجارة العبيد، لكن الداى رفض الانصياع والتوقيع على الوثيقة التي قدمت له<sup>(1)</sup>.

### 3- الخلفيات والدوافع الاقتصادية والاجتماعية:

اعتقدت فرنسا أن احتلالها للجزائر سيمكّنها من الحصول على غنيمة تقدر بـ 150 مليون فرنك توجد في خزينة الداى، كما أن هدف إقامة علاقات دبلوماسية مع الجزائر كان من أجل استغلال خيرات البلاد الاقتصادية<sup>(2)</sup>، ولذلك تعاون الرأسماليون الفرنسيون الذين كانت تدفعهم مصالحهم المالية إلى العثور على أسواق جديدة وموارد خام ضرورية لهم مع رجال الجيش الذين كانوا يبحثون عن المغامرة وملء جيوبهم بواسطة السلب والنهب حتى يرتقوا إلى مصف الشخصيات الراقية في المجتمع الفرنسي، هذا وكانت مجموعة من التجار متحمسة لفكرة احتلال الجزائر والاستيلاء على الأراضي الخصبة بها وزراعة العنب والبحث عن مناجم الذهب، أضف إلى هذا تطلع بعض التجار الفرنسيين لتطوير أسواقهم التجارية وتوسيعها<sup>(3)</sup>.

وفي ذلك قال الجنرال بيجو<sup>(4)</sup>: "ستطلب الجزائر ولمدة أطول المنتوجات الصناعية من فرنسا بينما تستطيع تزويد فرنسا بكميات هائلة من المواد الأولية اللازمة للصناعة"، ولقد رأت البرجوازية أن هذا سيجلب لها أرباح خاصة بعد توطئ الفئاض من سكان فرنسا وأوروبا وإرساله إلى الجزائر من أجل الخدمة في الأراضي الزراعية واستغلال خيراتها من حبوب وقمح<sup>(5)</sup>، وتمهيدا لذلك نجحت فرنسا بفضل علاقاتها الودية مع الدولة العثمانية في تأسيس أول شركة فرنسية لاستثمار المرجان "شركة لانش" سنة 1561م، كما تحصلت على موافقة الداى حسان باشا (1557-1567م) لإنشاء المؤسسة الفرنسية الإفريقية (Concession Française d'Afrique)، والتي استمرت حتى القرن 19 وأصبحت قاعدة عسكرية أكثر منها تجارية<sup>(6)</sup>.

<sup>1</sup> - صالح فركوس، الحاج أحمد باي قسنطينة، المرجع السابق، ص 15.

<sup>2</sup> - Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, Op.cit, pp 33-34.

<sup>3</sup> - إحسان حقي، الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، بيروت، 1961، ص 45.

<sup>4</sup> - الجنرال بيجو: هو توماس روبر بيجو تولى الحكم في الجزائر بين 1840 و 1847 سلك خلال سنوات حكمه سياسة القهر والعنف والابادة والتدمير والتهجير، ينظر: Claude callot, op.cit, p 56.

<sup>5</sup> - محمد الطيبي، الجزائر عشية الغزو الاحتلالي (دراسة في الازدهار والبنيات والمآلات)، دار ابن النديم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص ص 135-136.

<sup>6</sup> - صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غابة الاستقلال، المرجع السابق، ص ص 179.



ويعد تسارع الثورة الصناعية بفرنسا بداية القرن 17 عاملا أساسيا في تطلعها إلى ثروات الجزائر الزراعية والمعدنية، وهي الحقيقة التي أقر بها وزير الحرب الفرنسي " كليرمونتونير " ( Clermont Tonnerre ) في تقريره الذي أرسله إلى شارل العاشر في سبتمبر 1827م، حيث يقول " ...توجد مراسي عديدة على السواحل الجزائرية الطويلة التي يعتبر الاستيلاء عليها مفيدا لفرنسا، وتحوي أراضي الجزائر مناجم غنية بالحديد والرصاص، وتزخر بكميات هائلة من الملح والبارود، كما توجد في سواحلها ملاحات غنية ..."

ولعل من أهم الدوافع الاقتصادية لحملة الفرنسية العسكرية على الجزائر هو التخلص من تسديد ديونها المتبقية، وتتلخص قضية الديون في العلاقة المشبوهة التي كانت تربط اليهوديان بكري وبوشناق بالقنصل دوفال، اللذان كانا يقومان بتسديد ما اشترته فرنسا من الحكومة الجزائرية نيابة عنها، بعدما كانت فرنسا من قبل تشتري ما تحتاجه مباشرة من موانئ الجزائر، وعندما طالب الداوي حسين بثمان القمح اتفق دوفال مع التاجرين اليهوديين على توقيف الدين<sup>(1)</sup>. هذا كله بالإضافة إلى أن أعداد سكان فرنسا كانت في تزايد مستمر بفضل تحسن ظروف الصحة والحياة بعد التطور الاقتصادي الناتج عن الثورة الصناعية بشكل عام، إذ بلغوا 32 مليوناً عام 1830<sup>(2)</sup>، وهذا يمثل عتبا اقتصاديا إضافيا، وبالتالي يجب البحث عن مجال لإسكان بعضهم.

#### 4- الدوافع الدينية والحضارية:

الأكيد أن الدافع الاقتصادي هو أقوى محرك للزعة الاستعمارية الأوروبية في العصر الحديث، لكن لا يمكن فصل ذلك عن الصراع المتواصل بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي الذي يعود إلى فجر الإسلام، والذي كان قائما في هذا العصر بين الدول المسيحية الأوروبية والدولة العثمانية التي حققت فتوحات إسلامية أوشكت على أسلمة أوروبا بكاملها؛ وكانت الجزائر أشد المؤيدين والمتعاونين مع الدولة العثمانية في الدفاع عن الإسلام ونشره خاصة في حوض البحر المتوسط، وهذا ما جعلها في مقدمة أعداء دول أوروبا إلى جانب الدولة العثمانية<sup>(3)</sup>، وقد تجسد هذا العداء في الحلف الصليبي

<sup>1</sup> - نفسه، ص ص 180-181،

<sup>2</sup> - Adolphe d' Angeville, Essai sur la Statistique de la Population Française, BOURG Imprimerie de Fred dupour, Paris, 1838, p20.

<sup>3</sup> - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية وإلى غاية 1962، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 86.

لمؤتمر فيينا 1815م، وإكس لاشابيل 1818م، اللذان أقرتا بضرورة تحرير المسيحيين الموجودين في الجزائر وتحطيم قوة الأسطول الجزائري<sup>(1)</sup>.

ولهذا كان للجانب الديني أثر كبير في احتلال الجزائر، فمن العوامل التي ساعدت فرنسا على الغزو هو عودة الكنيسة إلى نشاطها ومحاولة إعادة الاعتبار إلى المسيحية وانقاذ المسيحيين من أيدي القراصنة الجزائريين- حسب تعبيرها-، ففرنسا كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية وراعية لنشر المسيحية<sup>(2)</sup>، وقد عبر الملك شارل العاشر عن ذلك حينما خاطب كل أساقفة المملكة قائلا: "إن مرادنا أن تقيموا صلوات في جميع الكنائس وتطلبوا من الله أن يحيي الراية ويعطينا النصر."<sup>(3)</sup>

ولكي يحقق غرضه هذه اتفق مع باي تونس على بناء كنيسة تقام على ضريح الملك لويس التاسع تخليدا لهذا الملك وأعماله، وقد أراد شارل العاشر بهذا العمل أن يبرهن للشعب الفرنسي على مدى اهتمامه بالبعث المسيحي والحضاري بإفريقيا، وبقرار سري تمت المعاهدة بين باي تونس وفرنسا يوم 18 أوت 1830م<sup>(4)</sup>، واعتبرت هذه المعاهدة عهد جديد في بعث الكنيسة الإفريقية.

وفي 02 مارس 1830م لما كان الفرنسيون يستعدون لاحتلال الجزائر قال الملك شارل العاشر في خطاب العرش: "إن العمل الذي سأقوم به (احتلال الجزائر) ترضية للشرف الفرنسي، وسيكون بإعانة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها"، وهو ما أكدته كاتب الحاكم العام للجزائر عام 1832 بقوله: "إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذ أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا على أي حال أن نشك بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد"<sup>(5)</sup>.

وقال الجنرال بيجو: "إن أرض الجزائر أرض خصبة لزراع المسيحية... أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا"، أما وزير الحربية "كليرمون تونير" فقد دعا وأيد فكرة

<sup>1</sup> - صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، المرجع السابق، ص 174.

<sup>2</sup> - خدجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1871، دار دحلب، الجزائر، 2009، ص 15

<sup>3</sup> - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص 351.

<sup>4</sup> - يحيى عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 126.

<sup>5</sup> - Claud Collot, les institution de l'algérien durant la période colonial 1830-1962, paris, 1987, p125,126.

الاحتلال بقوله: "الثأر من أعداء المسيحية وفتح أبواب شواطئ إفريقيا خدمة لأوروبا والإنسانية معا" ، وهذا هو عين التعصب الديني والعنصرية الذي كان يتخبط فيه ساسة فرنسا؛ ثم إن رجال الدين المسيحيين لعبوا دورا كبيرا في الحملة، حيث تشير بعض التقارير أن الحملة الفرنسية التي اتجهت نحو الجزائر كانت مجهزة بحوالي ستة عشر قسيسا، وقد صرح القائد دي برمون<sup>(1)</sup> بذلك قائلا: "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا ولن أمل أن تتبع قريبا الحضارة التي انطفت في هذه الربوع"<sup>(2)</sup>.

#### 5- الدوافع المباشرة (الذرائع):

وقعت الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر بعد حصار بحري خلال الفترة الممتدة من 16 جوان 1827 إلى 14 جوان 1830، تحت حجة وذريعة حادثة المروحة، التي تعرض فيها الداوي حسين<sup>(3)</sup> لاستفزاز قنصل فرنسا بيار دوفال<sup>(4)</sup> (PIERRE DUVAL) في نقاش جرى بينهما صبيحة عيد الفطر (1827/04/30)، حيث سأل الداوي حسين القنصل الفرنسي عن سبب تماطل الحكومة الفرنسية في الرد على رسالته لتسوية الديون العالقة، والمقدرة بـ 300 مليون فرنك ذهبي، فأجاب دوفال بكلمات غير لبقية، لم يحترم مكانه من داي الجزائر ولا الأعراف الدبلوماسية، مما أثار غضب الداوي، فما كان منه إلا أن لطمه بنشاشة الذباب التي كانت بيده، وأمره بالخروج من مجلسه في

<sup>1</sup>- دي بورمون: كان جنرالا في جيش بونايرت عينه شارل العاشر وزيرا للحربية، قاد الحملة الفرنسية على الجزائر، ينظر: Charles Ageron, op.cit,p 35.

<sup>2</sup>- خدجعة بقطاش، المرجع السابق، ص 26.

<sup>3</sup>- الداوي حسين: اسمه الحقيقي حسين بن الحسن، وعرف بالداوي حسين، وهو آخر دايات الجزائر، ولد في فبراير 1768 بالقسنطينية، عين دايا للجزائر في مارس 1818، ينظر إلى: احمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص: 141-145. *Revue de Paris*, T31, 145-141. Et Jal.A, Détails sur Hessein-Pacha Dey d'Alger, *Revue de Paris*, T31, 145-141. (in), Oct 1831, P291-311.

<sup>4</sup>- بيار دوفال: قنصل عام لفرنسا بالجزائر منذ 20 أوت 1815 إلى 11 جوان 1827، وأعتبر من قبل عدة مؤرخين من أسباب القطيعة للعلاقات الجزائرية الفرنسية، توفي سنة 1829 بفرنسا، أنظر: Colonel Godchot , les trois coup de chasse mouche du dey d'Alger, *La Revue politique et littéraire : revue des cours politique et littéraires « revue bleue »*, Germer Baillièrre (Paris), 68<sup>eme</sup> année, N°1 1930, p 455.

حضرة مجموعة من الأعيان، وبعض قناصل الدول الأجنبية المعتمدين في الجزائر، وتطور الحادث إلى حصار لا يرفع إلا بعد أن يقدم الداوي حسين اعتذاراته عما صدر عنه اتجاه قنصل فرنسا، وعلى العكس من ذلك، رأى الداوي أن قبول شروط فرنسا مذلة كبيرة، وقابلها بإجراءات ميدانية، كهدم المؤسسات الفرنسية في القالة وبونة، ودعم الجيش ورفع عدد أفراد العاملين وأمر البحرية الجزائرية بمواصلة نشاطها، لإظهار بأن الحصار غير مؤثر، بل فاشل، وكانت هذه بمثابة ذرائع أخرى تحججت بها فرنسا لتنفيذ مشروع غزوها للجزائر<sup>(1)</sup>.

وجاء في جريدة مونيتور ( Moniteur ) الفرنسية تبريرات أخرى على إقدام فرنسا على احتلال الجزائر، منها أن الداوي حسين قد سمح لصيادي المرجان من كل الأجناس بالصيد على الساحل الجزائري، وبذلك إنهاء الاحتكار الفرنسي لهذا النشاط سنة 1826، بل وفتح التجارة حرة أمام أوروبا بأكملها، وأنه أمر بتفتيش المؤسسات التجارية العاملة في الشرق الجزائري، ورفض الاستجابة للوفد الذي ذهب إليه باسم مؤتمر إكس لاشبال<sup>(2)</sup>.

ثانيا: خلفيات الحماية الفرنسية على تونس ودوافعها:

1- خلفيات الحماية الفرنسية على تونس:

○ تونس بين الأزمات الداخلية وبداية التبعية الأجنبية:

كانت تونس حتى النصف الثاني من القرن 19 تابعة للحكم العثماني ممثلا في نظام البايات الذي شهد عدة إصلاحات في مختلف المجالات بعد تواصل الأزمات الداخلية وتفاقمها<sup>(3)</sup>، وكان "الباي محمد (1855-1859)" من أبرز بايات تونس الذين تزعموا الحركة الإصلاحية، حيث افتتح حكمه بإصدار دستور سماه "عهد الأمان" والذي ضم 11 مادة، من بينها: إصدار ضريبة "المجبي" سنة 1856<sup>(4)</sup>

<sup>1</sup> - B.dePenhoen, mémoires d'un officier d'état-major, Librairie charpentier, Paris, 1832, - p42.

<sup>2</sup> - Le Moniteur Algérien journal officiel de la colonie, N° 660, 13eme Année, Paris , 30 Novembre 1844.

<sup>4</sup> - ضريبة المجبي يدفعها الرجال القادرون من سكان البلاد وقدرها 36 ريال في السنة، أكثر تفاصيل أنظر: احمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج4، الدار التونسية للنشر، 1989، ص-ص 203-204.

وبعد الباي محمد خلفه "محمد الصادق باي (1859-1881)"، وفي عهده زادت النفقات على الناس بالضرائب، مما اضطر إلى الاقتراض من فرنسا بادئا بدين قدره 28 مليون فرنك<sup>(1)</sup>؛ وأحدث رضوخ البايات للنفوذ الأجنبي بالإضافة إلى فداحة الضرائب وفساد الجهاز الإداري استياء شعيبا عميقا، تجسد في ثورة مسلحة بدأت في مدينة الكاف سنة 1864 وامتدت إلى بقية المدن التونسية تزعمها (علي بن غدهام) وطالب الثوار الحد من النفوذ الأجنبي وربط تونس بالدولة العثمانية وإلغاء الضرائب الجديدة<sup>(2)</sup>، وخوفا من إطاحة الثورة بالعرش وجهت فرنسا وبريطانيا وإيطاليا أساطيلها إلى سواحل تونس لحماية مصالحها وإرهاب الثوار، وهذا ما جعل هذه الثورة تنتهي بالفشل<sup>(3)</sup>.

ولم تكد تونس تتخلص من تلك الاضطرابات في تلك الفترة التي لازمت تلك الثورة حتى ابتليت في أوائل سنة 1865 بظهور مرض الكوليرا ثم تلى ذلك انتشار الحى التيفوئيد سنة 1867م، وأدى ذلك إلى تعطيل الانتاج الزراعي والصناعي، وانتشرت المجاعة والقحط، وارتفعت الأسعار فدخلت البلاد في أزمة اقتصادية جديدة أجبرتها على اللجوء للاقتراض مجددا من فرنسا بشكل خاص، وهذا ما أسس لسيطرة أجنبية على الاقتصاد التونسي<sup>(4)</sup>.

#### ○ السيطرة الأجنبية على الاقتصاد التونسي ومظاهرها:

من أبرز أشكال التوسع الأوربي في القرن التاسع عشر ميلادي، ظاهرة تصدير رؤوس الأموال، وهي أموال توفرت نتيجة التحولات الهيكلية في قطاع البنوك، فتداينت الدول المتوسطة لرؤوس الأموال هذه وخضعت لهيمنة البنوك الأوربية الغربية، وكانت أوضاعها متشابهة من حيث الاقتصاد الفلاحي ونظام الضرائب والميزانية السيئة وانسياق رجال الدولة وراء التبذير والطمع وتسرب المصالح التجارية الأجنبية...<sup>(5)</sup>

<sup>1</sup> - نفسه، ج5، ص- ص 129-130.

<sup>2</sup> - أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1987، ص13.

<sup>3</sup> - أكثر تفاصيل عن هذه الثورة أنظر: جان غانياج، ثورة علي بن غدهام 1864، تر: لجنة كتابة الدولة للشؤون الثقافية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس 1965.

<sup>4</sup> - محمد الخامس بيرم، صفوة الاعتبار لمستودع الأمصار والأقطار، دار صادر، بيروت، 1948، ص ص 35-37.

<sup>5</sup> - J. Sarzeau, Les Français aux colonies (Sénégal-Soudan Français- Dahomey- Madagascar- Tunisie), Librairie Blood et Barral, Paris, 1887, p356.

واتخذت ظاهرة تصدير رؤوس الأموال شكل القروض للدول أو الاستثمار في تونس منحى تصاعدي كبير، بعدما قدمت لها بنوك وشركات فرنسية وإيطالية بشكل خاص قروض إغرائية مشروطة، وهذا ما دفع الأيالة إلى الإفلاس وبالتالي تم إخضاعها للمراقبة المالية مقابل إعادة جدولة ديونها بعملية أخرى مربحة<sup>(1)</sup>.

وقد وفر رأس المال الفرنسي أكبر قسط من الأموال الموظفة في قرضي 1863 أو 1865م، وانفردت بمراقبة مالية لها بعد التفاوض مع منافسيها (إيطاليا وبريطانيا)<sup>(2)</sup>، وقد تحكمت فرنسا في جزء مهم من مالية تونس متفوقة على منافسيها<sup>(3)</sup>، فتبلور الاتفاق بين الأوساط المضاربة الفرنسية وحكومتها حول تجاوز المراقبة المالية الجماعية نحو تركيز الاستثمار الفرنسي على البلاد التونسية<sup>(4)</sup>. وقد كان الاقتصاد التونسي خاضعا لنظام رقابة أجنبية بعد أن هيمنت عليها منذ 1869 فرنسا إنجلترا وإيطاليا، أمام عجز الحكومة التونسية على تسديد ديونها المتفاقمة المقدرة آنذاك بـ 125 مليون فرنك، وانفقت هذه القوى الأوروبية على جعل مالية الإيالة تحت نفوذها وبتحريض منها أسس "محمد الصادق" سنة 1869 لجنة مالية دولية وهي من أهم مظاهر السيطرة الأجنبية على الاقتصاد التونسي، وقد حُددت خصائصها بمقتضى قانون صدر في مارس 1870<sup>(5)</sup>؛ وكان عمل اللجنة المالية الدولية في حقيقته التدخل في كل فروع الإدارة بالبلاد، حيث اعتبره التونسيون الوطنيين رمز سيطرة الغرب، وأداة لاستغلاله وإذلاله للشعب التونسي<sup>(6)</sup>.

<sup>1</sup> - خليفة الشاطر وآخرون، تونس عبر التاريخ، ج3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005م، ص17.

<sup>2</sup> - M.L.METIVIER Charier-Beulay, Petit Histoire de la Tunisie, Edition la flèche (sarth), 1910, p115.

<sup>3</sup> - M.VICROR Deville, Partage de l'Afrique : exploration, colonisation, etat politique, librairie africaine et coloniale, Paris, 1898, p370.

<sup>4</sup> - خليفة الشاطر وآخرون، المرجع السابق، ص18.

<sup>5</sup> - علي المحجوبي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تر: عمر بن ضر، حليلة قرقوري، وعلي المحجوبي، دار سراس للنشر، تونس، ص-ص، 9-10.

<sup>6</sup> - شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب)، ط1، ملزمة الطبع والنشر- مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977، ص-ص، 296.297.

○ تونس من السيطرة الاقتصادية الأجنبية إلى الأطماع الاستعمارية:

أ- الأطماع الإيطالية في إيالة تونس:

في سبعينيات القرن التاسع عشر تطور التنافس بين القوى التوسعية الأوروبية على المجال التونسي من الميدان التجاري المالي إلى ميدان الاستثمارات الصناعية والخدمات واشتدت المنافسة الاقتصادية بين إيطاليا وفرنسا اثر تخلي انجلترا لأطماعها لفائدة فرنسا في إيالة تونس<sup>(1)</sup>، وقد تمكنت إيطاليا من الحصول على امتياز إنشاء الخط الحديدي "تونس/حلق الوادي المرسي" على حساب مساعي شركة "بون - قائمة الفرنسية"<sup>(2)</sup>.

وبدأت فرنسا محاولاتها للحصول على موافقة ايطاليا على مشاريع فرنسا في تونس مقابل اعترافها بحق ايطاليا في الاستلاء على بلدان أخرى (منها طرابلس الغرب)<sup>(3)</sup>، وحذرتها في الوقت نفسه بأنها على استعداد لدفع أي اعتداء إيطالي على تونس بالقوة، لكن إيطاليا قاومت النفوذ الفرنسي بشدة، وأرسلت مبعوثا إلى باي تونس لإقناعه بقبول الحماية الإيطالية، أو التنازل على "بززرت" أو إعلان ميناء بززرت حرا، لكن الباي رفض؛ فأرسلت إيطاليا عام 1878 م قنصلا جديدا وأصبحته بمظاهرة عسكرية للتأثير على الباي وتمكن فعلا هذا القنصل من حمل الباي على رفض مشروع حلف دفاعي عرضته عليه فرنسا صيف 1878 م<sup>(4)</sup>.

ب- الأطماع الفرنسية في إيالة تونس:

كانت فرنسا تعيش خلال الثلث الأخير من القرن 19م تحت تأثير هزيمة 1870<sup>(5)</sup> في حربها ضد ألمانيا وفي نفس الوقت كانت فرنسا تتخبط في أزمة اقتصادية تتمثل في تراكم البضائع المصنعة

<sup>1</sup> - M.VICROR Deville, Partage de l'Afrique : exploration, colonisation, état politique, librairie africaine et coloniale, Paris, 1898, p372 ; J. Sarzeau, Op.cit, p356.

<sup>2</sup> - J. Sarzeau, Ibid, p357.

<sup>3</sup> - أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر 1881-1956، ترجمة حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1986، ص10.

<sup>4</sup> - إسماعيل أحمد ياغي ومحمد شاكر، المرجع السابق، ص18.

<sup>5</sup> - ويطلق عليها الحرب السبعينية نسبة لسنة 1870 بين فرنسا وألمانيا التي انتهت بانتصار هذه الأخيرة وضمها لمقاطعتي الألزاس واللورين ويدخل ذلك في إطار الوحدة الألمانية، أكثر تفاصيل أنظر:

ورؤوس الأموال الناتجة عن ضيق السوق الداخلية وغلق الأسواق الأوروبية بسبب الحواجز الجمركية.

وبحكم هذه الظروف عقدت فرنسا العزيمة على الخروج من انكماشها للدخول في سياسة توسعية استعمارية تمكنها من الحصول على أسواق جديدة لبضائعها ورؤوس أموالها المتراكمة وفي نفس الوقت من استرجاع مكانتها القارية والدولية<sup>(1)</sup>، خاصة بعد ضمائها الاحتفاظ بالجزائر التجربة التي كبدها خسائر مادية وبشرية<sup>(2)</sup>؛ ولحماية مصالحها في هذا البلد<sup>(3)</sup> أبدت فرنسا اهتمامها بمصير جارتها "تونس" وحتى "مراكش (المغرب الأقصى)"، لذا عمدت السياسة الفرنسية إلى حماية استقلال تونس ومنع أي تدخل عثماني أو أجنبي في شؤونها، وصممت على أن لا تسمح للباب العالي باسترجاع نفوذه في تونس، فكانت ترسل أسطولها من الجزائر إلى المياه التونسية لمنع العثمانيين من التدخل<sup>(4)</sup>.

○ النقاش حول القضية التونسية أثناء مؤتمر برلين 1878 (حسم فرنسا القضية لصالحها).

بما أن مؤتمر برلين انعقد في الأساس لمناقشة ما يسمى بالمسألة الشرقية<sup>(5)</sup> أي ممتلكات الرجل المريض (الدولة العثمانية)، وبما أن تونس هي إيالة تابعة للدولة العثمانية فإن مناقشة القضية التونسية في مؤتمر برلين هو أمر حتمي ولو أنه لم يكن علنا بل تم بشكل سري في الكواليس<sup>(1)</sup>.

نورالدين حاطوم، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا والعالم، ج1، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995، ص326.

<sup>1</sup> - علي المحجوبي، انتصاب الحماية في تونس، المرجع السابق، ص3.

<sup>2</sup> - محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص103.

<sup>3</sup> - M.ALFRED RAMBAND, La France Coloniale : Histoire – Géographie – Commerce, 6eme édition, Paris, 1893, p142.

<sup>4</sup> - إسماعيل أحمد ياغي، محمد شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة إفريقيا)، ج2، دار المريخ للنشر، السعودية، 1993م، ص97؛ علي المحجوبي، انتصاب الحماية، ص9؛ NARCISSE Faucon, La TUNISIE Avant et Apres l'occupation française Histoire et colonialisation, Tome II, librairie coloniale, Paris, 1893, p485

<sup>5</sup> - المسألة الشرقية: هي النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية (الدولة العثمانية)، بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها، أو هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا، ويرى بعض المؤرخين أن المسألة الشرقية نشأت مع الدولة العثمانية نفسها، لكن هذا المصطلح لم يظهر إلا في



منذ بداية المناقشات العلنية تزامنت معها مناقشات سرية في الكواليس حول عدة قضايا من أهمها القضية التونسية حيث تشير التقارير أن بسمارك في أول حديث له مع ممثل بريطانيا بعد وصوله إلى برلين قال فيه "لماذا لا تدعوا روسيا تأخذ القسطنطينية وتأخذون أنتم مصر، سيكون هذا عادلا، ولن تعترض فرنسا على ما أظن، في كل الأحوال تونس أو سوريا ستكون مناسبة لها"<sup>(2)</sup> لكن ألمانيا حاولت إرضاء دول أخرى كذلك فيما يخص القضية التونسية، حيث أنه مع تحصيل بريطانيا على عدة امتيازات وتعرضها للانتقاد من طرف إيطاليا، حاول بيسمارك مواساة إيطاليا قائلا لممثلها: "لماذا لا تأخذون تونس وتسوون أموركم مع بريطانيا"، فرد كورتى ممثل إيطاليا قائلا: "تريدون إذن أن تحدثوا لنا مشكل مع فرنسا"<sup>(3)</sup>.

ورغم هذا التردد التي أبدته ألمانيا في هذا الشأن إلا أن بيسمارك حسم أمره بالموافقة على أطماع فرنسا في تونس من أجل صرف نظرها عن منطقتي الألزاس واللورين<sup>(4)</sup>، بل وأكد أن ألمانيا لن تقف في طريق فرنسا نحو تونس وكذلك الحكومة النمساوية، وبهذا علم الإيطاليون أن لفرنسا ورقة بيضاء للتدخل في تونس<sup>(5)</sup>، خاصة بعد ما اتضح موقف بريطانيا بشكل جلي في دعمها لفرنسا، وقالت أنه ليس فقط رأيها بل رأي أوروبا كلها<sup>(6)</sup>، وجاء ذلك في حديث للماركيز ساليسييري وزير الخارجية البريطاني لممثل فرنسا في المؤتمر: "افعلوا بتونس ما ترونه مناسباً، إنجلترا لن تعترض وستحترم قراراتكم" ورد الوزير الفرنسي بكل ثقة: "ربما المستقبل هو لنا في تونس .."<sup>(7)</sup>، وأكثر من ذلك فقد

مراحل ضعفها خاصة مع بداية القرن 19؛ أنظر: مصطفى كامل، المسألة الشرقية، دراسة وتقديم: مصطفى غنيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008، ص 09.

<sup>1</sup> - PAUL Leroy-Beaulieu, L'Algérie et la Tunisie, Librairie guillaumin, Paris 1887, p313.

<sup>2</sup> - Charles Benoist, La Question Méditerranéenne, édition Victor Attinger, Paris, 1928, p72.

<sup>3</sup> - Charles Benoist, Op.cit, p74.

<sup>4</sup> - Ibid, p75.

<sup>5</sup> - Ibid, p81; M.VICTOR Deville, Op.cit, p375.

<sup>6</sup> - M.ALFRED, La France Coloniale, p138.

<sup>7</sup> - Louis Vignon, La France dans l'Afrique du nord – l'Algérie et la Tunisie, librairie Guillaumin et G<sup>le</sup>, Paris, 1887, p128 ; CHARLES.B, La Question Méditerranéenne, pp 77-

أظهرت الوثائق أن اللورد SALISBURY اعترف كتابيا للورد LYONS في 07 أوت 1878 (مباشرة بعد المؤتمر) أن بريطانيا ليس لها اهتمام في تونس<sup>(1)</sup>، وبهذا استطاعت فرنسا أن تحسم تواجدتها في تونس خلال مؤتمر برلين وتنتزع اعتراف الدول العظمى بذلك<sup>(2)</sup>.

2- دوافع الحماية الفرنسية على تونس:

أ- الدوافع غير المباشرة (الحقيقية):

• الدافع الاستراتيجي:

كانت فرنسا تعتبر نفسها من الدول ذات الدرجة الأولى في العالم وإن لم تواصل التوسع سوف تنزل إلى دول الدرجة الثانية أول الثالثة، وقد صرح قمبيطا (Gambetta) أحد كبار السياسة الفرنسيين أن الأمم تبقى وتدوم بفضل التوسع وبالإشعاع خارج حدودها<sup>(3)</sup>؛ وكما اعتبرت فرنسا الجزائر امتدادا جغرافيا لها، فقد اعتبرت تونس ملحقة طبيعية وإدارية للجزائر التي كانت تقريبا قد تمكنت منها استعماريا وإداريا<sup>(4)</sup>، وكانت فرنسا تعتبر تونس من أهم المستعمرات التي من شأنها أن تكمل الجزائر بالنسبة لها<sup>(5)</sup>.

ولتونس موقع استراتيجي، فهذه المنطقة لا تبعد سوى 140 كلم عن صقلية التي تشكل معها المضيق الفاصل بين حوضي البحر المتوسط، وقد اكتسبت بفضل هذا الموقع مكانة استراتيجية كبرى، وصار احتلالها إذن يشكل أهمية بالغة إذ يسمح بمراقبة طريق العبور بين غربي هذا البحر وشرقه، مما يسهل طبعا مراقبة التجارة المتوسطية، بل يسمح أيضا بمراقبة تجارة الشرق الأقصى، وهو الذي صار ممكنا منذ فتح قناة السويس وانتقال طريق الهند، فمثلا ميناء "بنزرت" كان له أهمية لدى القوى العظمى إذ يمثل قاعدة حيوية من الصنف الأول في البحر المتوسط وهمزة وصل بين الشرق والغرب ويسمح تبعا لذلك بتمويل البواخر بالوقود، وهذا ما يؤكد جول فيري

<sup>1</sup> - M.VICTOR Deville, Op.cit., p375.

<sup>2</sup> - Ibid, pp 374-375.

<sup>3</sup> - الهادي البكوش، إضاءات على الاستعمار والمقاومة في تونس وفي المغرب الكبير، مركز النشر الجامعي، تونس، 2007، ص60.

<sup>4</sup> - Robert WASTELIER Du Parc, Etude sur la colonisation en Tunisie, ImpL.Danel, Lille, 1903, p03 ; J. Sarzeau, Op.cit, p355.

<sup>5</sup> - Joseph Charlley Bert, La Tunisie et la colonisation Française, Léon Charles éditeur, Paris, 1896, p11.

قائلا: "سفينة الحرب لا تستطيع أن تحمل من الفحم إلا ما يكفيها لمدة أربعة عشر يوما، وبآخرة بدون فحم هي بمثابة الحطام"<sup>(1)</sup>.

بالإضافة إلى رغبة فرنسا في اكتساب مزيد من القواعد الآمنة لبحريتها، حتى تتزود بالمؤن والوقود وتستفيد من الراحة، وفي هذا يقول جول فيري (Jules ferry): "احتجنا إلى تونس، ونحتاج إلى سايقون (Saigon) وقوشنشين (Cochinchine) (مدينتان ساحليتان في الفيتنام)، ومدغشقر... تونس مفتاح مملكتنا الجزائرية، والوجود الفرنسي في الجزائر لا يكون آمنا ما بقيت بلاد الحدود - تونس والمغرب - خارج هيمنتنا"<sup>(2)</sup>.

#### • الدافع الاقتصادي:

كانت الصناعات الفرنسية المتطورة في حاجة إلى المحافظة على وتيرة إنتاجها، بل والزيادة فيها، ولهذا وجب توفير أسواق جديدة لها خارج البلاد، كما أن رؤوس الأموال المتكدسة بفضل الأرباح التجارية، توفر ربح أفضل إذا تم استغلالها في المستعمرات، بالإضافة إلى أن التزود بالمواد الأولية المتوفرة في تلك المستعمرات أضمن وأسهل وأقل كلفة<sup>(3)</sup>.

ويندرج التدخل الفرنسي في تونس ضمن مرحلة تطور التوسع الاستعماري الفرنسي نحو المضمون الإمبريالي، فالقرن التاسع عشر هو قرن تقدم أوربا الغربية علميا وصناعيا نحو الازدهار والقوة والسيطرة العالمية، هذا الأمر انعكس سلبا على تونس، حيث التدخل التجاري والمالي الأوربي منذ النصف الثاني من القرن 19م، غير خصوصيات التجارة الخارجية التونسية التي تحولت نحو الانفتاح إلى اللاحق والهيمنة الأجنبية، وتدعمت مكانة التجار الأوربيين وخاصة الفرنسيين على حساب التوازنات التجارية والمالية للبلاد، فنشط رجال الأعمال الأوربيين مستفيدين من الامتيازات القنصلية فكسدوا الأرباح على حساب إفلاس الخزينة المحلية<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> - علي المحجوبي، المرجع السابق، ص 26.

<sup>2</sup> - الهادي البكوش، المرجع السابق، ص 60.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 59.

<sup>4</sup> - مجموعة من المؤلفين، تونس عبر التاريخ (الحركة الوطنية وحولة الاستقلال)، ج 3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005، ص 8.

وأمام الوضع الاقتصادي المتدهور الذي كانت تونس تعيشه، أجبرت الحكومة التونسية إلى الاقتراض<sup>(1)</sup> من البنوك الأوروبية ورجال الأعمال المقيمين في تونس وخاصة الفرنسيين الذين مارسوا ضغوطا كبيرة على بلادهم من أجل احتلال تونس، وذلك لتصدير جزء من أموالهم وبضاعتهم التي تكسدت في الأسواق الداخلية، مما جعلها بحاجة إلى أسواق خارجية ومناطق استثمار في هذه الفترة من الركود الاقتصادي، كما كان هؤلاء المستثمرين الفرنسيين يرون أن هذا الاحتلال سيمكنهم من الحفاظ على الامتيازات التي تحصلوا عليها في الإيالة، ومن تطوع هذه البلاد لخدمة مصالح مؤسساتهم دون سواها، وهم يملكون إمكانيات مادية ضخمة تؤهلهم للتأثير على الحكومة الفرنسية، وتمكنهم في نهاية الأمر من تحقيق أهدافهم<sup>(2)</sup>.

#### • الدافع السياسي:

منذ سنة 1878 بدأ المشروع الفرنسي في استعمار البلاد التونسية يتضح وذلك باحتلالها عسكريا وإعلانها محمية فرنسية رغبة في منع قيام نظام في تونس يهدد مصالحها في الجزائر خاصة في ظل أطماع إيطاليا التي أظهرت نواياها في احتلال تونس، وتخوفاتها من قيام حدود سياسية مشتركة مع الدولة العثمانية التي كانت تحكم طرابلس (ليبيا) من جهة أخرى.

لما طرحت المسألة التونسية في كواليس مؤتمر برلين الأول سنة 1878، اقترح وزير الخارجية الانجليزي ثم المستشار الألماني على فرنسا احتلال تونس، وقد أرادت إنجلترا بذلك إبعاد أنظار فرنسا عن مصر التي ستفرض عليها الحماية البريطانية بعد عام من فرض الحماية الفرنسية على تونس سنة 1882، أما تصريح المستشار الألماني "بيسمارك" للسفير الفرنسي بـ برلين في 4 جانفي 1879 قائلا: "إن الإجابة التونسية قد نضجت وحن لكم أن تقطفوها، إن قلة أدب الباي كانت بمثابة شمس أوت لهذه الثمرة الإفريقية التي يمكنها الآن أن تتعفن أو تسرق من طرف آخر إذا تركتموها كثيرا على الشجرة... رغبتني هي تمكينكم من ضمانات في الإدارة الطيبة حول المسائل التي تمسكم والتي لا تتناقض فيها مصالح ألمانيا مع مصالحكم..."، يندرج هذا الموقف الألماني في سعيها على

<sup>1</sup> - اقترضت تونس ثلاث مرات من البنوك الفرنسية والإنجليزية، حيث اقترضت سنة 1863 مبلغ 28 مليون فرنك، ثم سنة 1865 مبلغ 35 مليون فرنك، ثم سنة 1869 مبلغ 62 مليون فرنك، فكان مجموع الديون حتى عام 1869 125 مليون فرنك.

<sup>2</sup> - علي المحجوبي، المرجع السابق، ص 37.

الحفاظ على الوضع القائم لصالحها بأوروبا وتحويل اهتمام فرنسا عن استرجاع مقاطعتي "الألزاس واللورين" نحو التوسع الاستعماري<sup>(1)</sup>.

#### • الدافع الديني والحضاري:

كانت فرنسا تعتبر نفسها من الدول المتحضرة، وأن على شعبها ذو الجنس الأبيض مهمة تبليغ رسالة إلى العالم للنهوض بالشعوب المتخلفة ماديا وثقافيا واجتماعيا، ويقول في هذا الصدد ليون بلوم (Léon Blum) أحد كبار زعماء الاشتراكية في فرنسا: "نؤمن بحق الأجناس المتقدمة، وبواجبها في أن تجلب الأجناس المتخلفة التي لم تبلغ مستواها الثقافي"<sup>(2)</sup>، يضاف إلى ذلك طبعا دافع نشر الدين المسيحي، وإرجاع مجد المسيحية في إفريقيا على عهد روما.

#### ب- الدافع المباشر (الحجة):

لم يبقى لحكومة جول فيري إلا البحث عن الذريعة لتبرير التدخل أمام الرأي العام الفرنسي والأوروبي لذلك وضعت الخطة القاضية باكتساح الشمال التونسي انطلاقا من الجزائر بحجة تأمين الحدود الجزائرية، حيث مهدت فرنسا لفرض الحماية على تونس بإثارة مشكلة قبائل "الخمير" التونسية.

ورغم أن هذه القبائل هي في صراع دائم وقديم مع القبائل الجزائرية على الحدود، حتى أن الصراع يمتد إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، وحتى خلاله، فقد أحصت السلطات الاستعمارية ما بين 1870 و1881 حوالي 2379 حادثة اعتداء متبادلة بين القبائل التونسية والجزائرية على الحدود (أي بنسبة 250 حالة في السنة) من اختراق غير قانوني للحدود وحرق الغابات وشن للغارات والسرقة والقتل وأعمال إجرامية أخرى<sup>(3)</sup>: إلا أن فرنسا اعتبرت هذه الأعمال وبالضبط سنة 1881 (التي شهدت أحداثا عادية ومماثلة للسنوات السابقة وربما أقل<sup>(4)</sup>) بمثابة

<sup>1</sup> - نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>2</sup> - الهادي البكوش، المرجع السابق، ص ص 59-60.

<sup>3</sup> - I.S.H.M.N (Institut Supérieure d'Histoire du Mouvement National en Tunisie), A.N.O.M, Bobine A6, Sous série 25 H Tunisie cartons 25H6 dossier 1,2, 3, folio 340 date 1870-1880

<sup>4</sup> - هناك حوادث خطيرة حدثت من قبل لعل أبرزها حادثة اعتداء قبائل الخمير التونسية على السفينة الفرنسية Auvergne قبالة السواحل الجزائرية التونسية في 24 جانفي 1878 والتي اعتبر

عجز السلطات التونسية عن فرض الأمن وأن هذه القبائل خارجة على طاعة الباي وسيطرته، ولدى وجب التدخل<sup>(1)</sup>، وفي نفس الوقت أصدرت الحكومة الفرنسية الأوامر إلى الحاكم العام في الجزائر بالإسراع في مد خط السكة الحديدية الذي يصل الجزائر بتونس ليسهل نقل الجنود والمؤن<sup>(2)</sup>. وفي 24 أبريل 1881 اجتازت الجيوش الفرنسية حدود تونس، واحتلوا مدينتي "الكاف" و"طبرقة" بدون مقاومة كما أنزلت فرنسا بعض قواتها التي أبحرت من ميناء طولون في ميناء "بنزرت"، وبعد احتلالهم لها تقدموا صوب العاصمة<sup>(3)</sup>، وفي 12 ماي 1881 كانوا يعسكرون على مقربة من قصر "باردو" الواقع على بعد 20 كلم من تونس، وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم قدم القنصل العام الفرنسي "روستان" إلى الباي نسخة من المعاهدة المطلوب التوقيع عليها والتي كان قد وضعها جول فيري، وأرسلت مع القائد الفرنسي "بريار"، وأعطى الباي مهلة حتى الساعة التاسعة لقبول المعاهدة أو رفضها، واجتمع الباي بمجلس الدولة التونسي لعرض الأمر عليه، وارتفعت أصوات المعارضة من أعضاء المجلس وطلبوا بالمقاومة ودعوة الشعب للجهاد، وهدد الفرنسيون بخلع الباي "محمد الصادق" عن العرش وتنصيب أخيه "الطيب باي" مكانه في حالة رفض التوقيع، وفي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم (12 ماي 1881)، وقع محمد الصادق على المعاهدة<sup>(4)</sup>.

ثالثا: مقارنة:

1- من حيث الخلفيات والدوافع:

1-1 الخلفيات التاريخية:

هناك تشابه كبير في الخلفيات التاريخية بين الاحتلال الفرنسي للجزائر والحماية على تونس، فقد كانت كل منهما عرضة للحملات الصليبية الأوروبية ومنها الفرنسية وذلك منذ أواخر القرن 13، عندما كان يفكر ملك فرنسا لويس التاسع في غزو واحتلال بلدان المغرب، فقام بحملة صليبية على تونس سنة 1270، وتقول كثير من المراجع أنه كان يقصد الجزائر كذلك.

بعدها وزير الخارجية الفرنسي M.Bauthelemy الحدود غير آمنة ومقلقة؛ أنظر: J. Sarzeau,

Op.cit, p 258

<sup>1</sup> - J. Sarzeau, Op.cit, p 258

<sup>2</sup> - شوفي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص 306.

<sup>3</sup> - J. Sarzeau, Op.cit, p 358-370.

<sup>4</sup> - نفسه، ص 307.

وفي بداية القرن السادس وبعد اشتداد الحملات الصليبية خاصة الإسبانية على سواحل الجزائر وتونس تم الاستنجد بالإخوة بربروس الذين جعلوا تونس والجزائر ولايتان عمانيتان وأسسوا فيما أساطيل بحرية سادت المتوسط بنشاطها الحربي ضد القوى الأوروبية، هذا ما جعل هذه القوى ومنها فرنسا تحاول كسب ود الجزائر وتونس بعقد مجموعة اتفاقيات سلم وتعاون سياسي واقتصادي وحتى حربي، وكانت تسعى فرنسا من وراء ذلك لكسب مزيد من الامتيازات الاقتصادية<sup>(1)</sup>.

لكن علاقة فرنسا بكل من الجزائر وتونس توترت مع نهاية القرن 16م بداية القرن 17م، رغم عودة السلم والمهادنة على فترات، حيث أصبحت الجزائر وتونس هدفا لمشاريع الاحتلال الفرنسي، ففي عهد ملك فرنسا شارل التاسع تجددت فكرة غزو الجزائر، وذلك بعد المعركة البحرية التي هزم فيها الأسطول العثماني يوم 9 أكتوبر 1571، وفي 1791، قدم قنصل فرنسا مشروع لاحتلال الجزائر<sup>(2)</sup>، وفي نفس الفترة تقريبا تحديدا سنة 1600 غرض أحد قادة السفن البروفنسية الفرنسية مشروعا لاحتلال تونس يعتمد على خطة إحراق الأسطول التونسي في ميناء حلق الوادي لكنه لم يتم<sup>(3)</sup>.

وفي سنة 1792 التي تم فيها تحرير وهران و المرسى الكبير الوجود الاسباني، كانت هناك رغبة أن تحل فرنسا محل اسبانيا في شمال افريقيا ، وفي عهد نابليون بونابرت تجددت نوايا فرنسا بجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية ، لذلك كان يخطط لحملة كبيرة ضد دول المغرب العربي الأربع وإقامة مستعمرات عسكرية فرنسية هناك.

وهناك أوجه اختلاف في الخلفيات التاريخية بين الاحتلال الفرنسي للجزائر والحماية الفرنسي على تونس خاصة مع نهاية القرن 18 وبداية ق19م، ذلك أن فرنسا كانت تعتبر الجزائر وأسطولها البحري أخطر من تونس على أمنها في البحر المتوسط، وأن الجزائر أحسن فائدة اقتصادية من تونس في تلك الفترة، كما أن أزمة الديون الجزائرية على زادت من رغبة احتلالها أكثر.

ورغم وجود تنافس استعماري مشابه على الجزائر وتونس بين القوى الأوروبية خاصة بين فرنسا وبريطانيا، وفي حالة تونس مع إيطاليا أيضا، إلا أنه هناك اختلاف في قضية حسم فرنسا لتدخلها في

<sup>1</sup> - يحي بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر ، ج1، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1965، ص 179.

<sup>2</sup> - بوعزيز، المصدر السابق، ص 165.

<sup>3</sup> - Eugène Plantet, correspondances des Beys de Tunis et des consuls de France avec la cour (1577-1830), T1, Felix Alcan Editeur, Paris, 1893, p4.

الجزائر وتونس، حيث وبعد أن اتفقت القوى الأوروبية على تأديب الجزائر وإنهاء نشاطها البحري (القرصنة) في مؤتمر إكس لاشابيل، أعدت فرنسا مشروعها بكل سرية ونالت التزكية من القوى الأوروبية بعد بداية الحملة العسكرية على الجزائر، بينما في مشروع احتلال تونس استطاعت فرنسا كسب موافقة أغلب القوى الأوروبية مسبقا خلال مؤتمر برلين 1878.

## 2-1 الخلفيات والدوافع السياسية والعسكرية:

لا يوجد تقريبا مجال اختلاف بين الخلفيات والدوافع السياسية والعسكرية للاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس، حيث كانت فرنسا تعتبرهما جزء من الإمبراطورية العثمانية أشد أعدائها، كما أنهما كانتا تهددان مشاريع فرنسا التوسعية وأمنها باستمرار في حوض المتوسط. كما أنفرنسا أرادت أن تتعوض هزائمها في أوروبا وحملتها الفاشلة على مصر، وما فقدته من مستعمرات ومراكز في أمريكا الشمالية والهند و غرب افريقيا ( السنغال ) باحتلال الجزائر أولا ثم تونس، ولم تخفف فرنسا طمعها فيفتحبا بالهيمنة على القارة الإفريقية بذلك بسبب موقعهما المتميز القريب منالسواحل في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وغير بعيد عن جبل طارق ومالطا<sup>1</sup>، وهذا يسمح بمراقبة طريق العبور بين غربي البحر المتوسط وشرقه، مما يسهل طبعا مراقبة التجارة المتوسطية<sup>(2)</sup>. بالإضافة إلى رغبة فرنسا في اكتساب مزيد من القواعد الآمنة لبحريتها، حتى تتزود بالمؤن والوقود وتستفيد من الراحة، واعتبر جول فيري (Jules ferry) احتلال تونس مفتاح مملكة فرنسا الجزائرية، والوجود الفرنسي في الجزائر لا يكون آمنا ما بقيت بلاد الحدود - تونس والمغرب - خارج هيمنته<sup>(3)</sup>، حيث كانت فرنسا تعتبر الجزائر وتونس امتدادا جغرافيا لبعضهما، فقد اعتبرت تونس ملحقه طبيعية وإدارية للجزائر التي كانت قد تمكنت منها استعماريا وإداريا<sup>(4)</sup>. كما أن فرنسا كانت تعتبر نفسها من الدول ذات الدرجة الأولى في العالم وإن لم تواصل التوسع سوف تهبط إلى دول الدرجة الثانية أول الثالثة. وقد صرح قمبيطا (Gambetta) أحد كبار السياسة

<sup>1</sup> - سيمونيفايير، المرجع السابق، ص 250-253.

<sup>2</sup> - علي المحجوبي، المرجع السابق، ص 26.

<sup>3</sup> - الهادي البكوش، المرجع السابق، ص 60.

<sup>4</sup> - Robert WASTELIER Du Parc, Op.cit, p03 ; J. Sarzeau, Op.cit, p355.



الفرنسيين أن الأمم تبقى وتدوم بفضل التوسع والإشعاع خارج حدودها<sup>(1)</sup>، خاصة في ظل منافستها الدائمة لدول أوروبا وفي مقدمتها بريطانيا.

ولعل الاختلاف الوحيد في الخلفيات السياسية للاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس هو أن احتلال الجزائر كان رغبة من ملك فرنسا شارل العاشر الحفاز على عرشه في ظل الاضطرابات الداخلية التي كانت تعيشها فرنسا بإلهاء الرأي العام الفرنسي وإشغال الجيش بحملة عسكرية كبرى، بينما جاء مشروع فرض الحماية على تونس لتأمين تواجدتها في الجزائر وإبعادا للسلطة العثمانية من حدودها وكذلك إنهاء للأطماع الإيطالية فيها.

### 3-1 الخلفيات والدوافع الاقتصادية والاجتماعية:

يندرج الاحتلال الفرنسي للجزائر تونس ضمن مرحلة تطور التوسع الاستعماري الفرنسي نحو المضمون الإمبريالي، فالقرن التاسع عشر هو قرن تقدم أوروبا الغربية علميا وصناعيا نحو الازدهار والقوة والسيطرة العالمية، وكانت الصناعات الفرنسية المتطورة في حاجة إلى المحافظة على وتيرة إنتاجها، بل والزيادة فيها، ولهذا وجب توفير أسواق جديدة لها خارج البلاد، كما أن رؤوس الأموال المتكدسة بفضل الأرباح التجارية، توفر ربح أفضل إذا تم استغلالها في المستعمرات، والتزود بالمواد الأولية المتوفرة في تلك المستعمرات أضمن وأسهل وأقل كلفة، وهذا كله كتوفر سواء في الجزائر أو في تونس، رغم اختلاف الظروف باختلاف تواريخ الاحتلال (1830 بالنسبة للجزائر و1881 بالنسبة لتونس)<sup>(2)</sup>.

هذا بالإضافة إلى أن رغبة فرنسا كانت واحدة في نهب خيرات الجزائر وتونس الزراعية والمعدنية وما هو موجود في خزائنها من غنائم وكنوز وأموال. مع اختلاف بسيط كون فرنسا كانت تريد التخلص من أزمة الديون المترتبة عن شراء القمح من الجزائر بينما استعملت ديونها على تونس لفرض الحماية عليها.

كما أن مسألة البحث عن مجال للفائض السكاني الذي عانت منه فرنسا بسبب تحسن ظروف المعيشة فيها، متشابه في دوافع احتلال الجزائر وتونس معا.

<sup>1</sup> - الهادي البكوش، المرجع السابق، ص 60.

<sup>2</sup> - الهادي، المرجع السابق، ص 59.

## 4-1 الخلفيات والدوافع الدينية والحضارية:

كانت الجزائر وتونس من أشد المؤيدين والمتعاونين مع الدولة العثمانية في الدفاع عن الإسلام ونشره خاصة في حوض البحر المتوسط، وهذا ما جعلهما في مقدمة أعداء دول أوروبا<sup>(1)</sup>، ولهذا كان للجانب الديني أثر مشترك في احتلال فرنسا الجزائر وتونس رغبة منها في عودة الكنيسة إلى نشاطها ومحاولة إعادة الاعتبار إلى المسيحية في إفريقيا على عهد روما، ففرنسا كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية وراعية لنشر المسيحية<sup>(2)</sup>.

## 5-1 الدافع المباشر (الذريعة أو الحجة):

لقد اختلفت فرنسا الذرائع لاحتلال الجزائر ولفرض الحماية على تونس لإقناع الرأي العام المحلي والعالمي بمشروعيتها، ويكمن التشابه بينها كونها واهية وغير مقنعة لأي عاقل، فكيف لحادثة عرضية مفتعلة بين القنصل الفرنسي وداي الجزائر (ما يسمى بحادثة المروحة) أن تكون سببا في قيام حرب أو مشروع احتلال لفرض الاعتذار، وكيف لحادثة اعتداء قبائل الخمير على الحدود الجزائرية والتي لم تكن الأولى من نوعها أن تكون سببا في فرض الحماية على تونس.

خاتمة:

رغم الاختلاف في طريقة الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس بين الاحتلال العسكري المباشر ونظام الحماية، إلا أن كلاهما يندرج في إطار الهيمنة والسيطرة الأوروبية التي مهدت لها الثورة الصناعية وتغير موازين القوى بين الشرق والغرب، ومن خلال تتبع خلفيات ودوافع الاحتلال الفرنسي لكل من الجزائر وتونس، ومقارنتها، نلاحظ التشابه الكبير في الخلفيات من أغلب نواحيها التاريخية والسياسية والاقتصادية وغيرها، ووجود اختلافات في الدوافع وذلك باختلاف المكان والزمان وطريقة الاحتلال.

<sup>1</sup> - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص 86.

<sup>2</sup> - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 15.